عصير الكتب للنشر الالكترونى

— قصص —

فرط العنب

ايمان الدواخلى

إيمان الدواخلي

فرط العنب

(قصص)

جميع الحقيق محفوظة © عصير الكتب للنشر الإلكتروني

http://book-juice.com

فرط العنب

المؤلف : د. إيمان الدواخلي

نشر في : نوفمبر ٢٠١٤

يا قلب يا جايله القمر بيقول له جدِّت سنة،

قام رد قال عارف،

وجع القلوب عدَّاد ..

الجدة

الجدة ما برحت بيتها يوما.. قالت: هم من يجب أن يأتوا للكبير. وأنا البطن التي أنبتتهم والثدي الذي أشبعهم، والكتف الذي حملهم. جاءها النبأ عبر هاتف المترل، ففرحت بزيارهم، نست معاتبتهم.

نادت جارتها -كعادتهما- وأعدت الصواني والمحشوات والمحمرات.. وتعالت الرائحة إلى سماء القرية.

حين وصلوا، كحَّت الصغيرة ابنة الصغير. قالت أمها إن الروائح النفاذة تضايقها، أخذها أبوها إلى الشرفة لحين إطفاء نيران

الطبخ الكثيرة. ودخل الكل يرتاحون من السفر. وحين وضع الطعام، على فرشة واسعة على الأرض. وضع كلٌ ما شاء في طبقه، وقام إلى كرسي، إلى الهواء في الشرفة، أو إلى أريكة أمام التلفاز.. ما بقي غيرها وصغيران يستلذان الأكل من يد حنونة بلا ملاعق معدنية. بينما تنقنق هي بعض لقيمات، لم تعد قادرة على أكل ما هو أكثر منها، فلا أسنان تمضغ ولا بطن تهضم.

تترك كل طفل لأمه تغسل له يده هانئة بشبعه. تسمع ضحكهم في الساحة فتبتسم. سنوات طويلة لم يعمر هذا الدار بالضجيج. الأبناء والأحفاد الكبار بعض الشيء ذهبوا

بأطباقهم الفارغة إلى المطبخ، فأراحوا ضمائرهم. ولملمت هي الفرشة وما عليها مكتفية بعون البسمة وري الشوق.

وفي المطبخ، تسللت لها جارتها حبيبتها، فغسلتا الماعون معا، وضحكتا كثيرا وهما تفرغان بقايا الصواني التي نسفها أبناء يفقدون تفرنجهم أمام مشتهى طعام الجدات.

في اليوم التالي، أتاها الأبناء بهدية.. مروحة تسحب روائح الطعام.. كبيرة قوية.. ركبوها في حائط مطبخها فوق موقدها. لم تفهم لها فائدة، إلا أنها تقلل من دفء المطبخ في قارس الشتاء. فتشد الخيط كما علموها، فتتوقف المروحة.. يأتي أحدهم

دون دعوة، فيشده ويديرها. تشد الخيط، فيشدونه.. فتشده، فيشدونه.. فتأتي بشالها الصوفي، تلفه حول رقبتها وتعجن للحواوشي دقيقا منخولا.. وتفرم اللحم بنفسها في مفرمتها، فلا أمان لما تحوي مفرمة جزار. تتوقف المفرمة، فتفكها.. شعرات من الألياف لفت على حلزونها، تفككها ثم تعاود الطهو.

الفرشة ممدودة.. الكل يأكل ويتضاحك.. وهي تطعم حفيديها الأصغر ككل مرة. لكن وجهها بلا ابتسامة، وعيناها تدوران بطرف خفي يراقب الجمع الشاب بلا شباب. تتذكر زوجها وأخويها ولمتهم على نفس الفرشة يمتدحون، وزوجاتهم تتباهين

بشمخة تميز ما يطهين. تلوك قطعة من الخبز عجنتها وخبزتها في فرنها الفلاحي قبل أن يصحو أحد من أولئك الكسالى. إنها لم تعد تتلذذ من أصناف الطعام سوى بفَوحِها في منخريها، والمروحة اللدودة تذهب بالفوح للجيران.

تتغير في عينيها صورهم إلى بهائم ترعى.. لا، إن جاموستها تتلذذ بالبرسيم الأخضر أكثر.

ويوم وراء يوم، تراقب الشروق والغروب، وساعة الصالة الضخمة ذات البندول.

وإجازتهم لا تبتغي الانتهاء، والبندول يتراخى، كأنما تعوِّض الساعة سنوات غيابهم بتباطؤ تظنه يسعد سيدة الدار.

وتفرم اللحم، ويوقف الليف (الشغت) المفرمة. فتفكها.. ثم تبرق عيناها.. تترك الشغت، وتحاول فرمه.. تكاد المفرمة تنكسر.. تبتسم.. تنتظر خروجهم للساحة، وتعطي المقص لجارتها الصديقة، لتقص شبرا من ضفيرة الجدة الرفيعة. تأتي بالكرسي الخشبي، وتسندها جارتها.. ترفع يدها الجعدة بالخصلة، تسقطها وراء ريشات المروحة، فتئز المروحة وتتباطأ.. حتى تقف تماما. تتأمل للحظة أطراف شعرها المتعقدة على محور المروحة، فتضم طرف ضفيرتها بكف مواسٍ. تنزل.. تجد ابتسامة جارتها تقابلها، فتبتسم هي الأخرى في ظفر.. وتقدح الزبد على الموقد.

***

كباريه

على المقعد العالي بجواره، قفزت في مرح وطلبت عصير الفراولة الأحمر بلون شفتيها المصبوغتين.. تأملته.. بدا لها كنبيل في قومه، الأناقة تنضح منه، والرصانة رغم أجواء المجون تميزه. طال تجاهله لها، فبادرته:

– ألا ترى أن أجمل الموجودات جاءت إليك؟

التفت إليها ببصره دون وجهه.. سألها:

– أتعملين هنا؟

أومأت برأسها أن نعم، وألقت بشعرها الطويل إلى الخلف. تأملها للحظة وصمت.. تمر بعض دقائق في الصمت.. تغتاظ، وتقرر

أن تنهي الموقف..

- أتفضل إذًا أنت تجلس وحدك؟

يرد بابتسامة:

- أتعملين هنا؟

ترد في عصبية:

- نعم

يلتفت إلى كأسه، ويقول بنفس ابتسامته:

- فأنا بالفعل أجلس وحدي

***

مفاضلة منطقية

البيوت، في حارتنا تلك، أجادت إعداد العجين، وكلفت النساء حشوة شهية من ملبن، أو عجوة، والفول السوداني، وذهبن بها على الصاجات لأفران الخبز، تتباهين.

في تلك الحجرة فوق سطح البناية الآيلة للسقوط، هناك جدة أخذت تعجن ماءً ودقيقا؛ لا تملك إلا ماءً ودقيقا. تشكِّل ولدًا وعروسة، ثم ولدا وعروسة، ثم ولدا وعروسة.. تعجنها أصغر كي يكتمل العدد لأطفال الحي. تغفل عيناها من تعب المجهود القليل – دوما تغفل بعد المجهود، وتنسى عجينها في الفرن.

تحترق عرائسها وأولادها قليلا، لكن
سرعان ما تفيق مع الرائحة، ثم تعالج ذلك
ببعض السكر المرشوش يخفيها وهي تضحك
وتدندن: عروسة سمرا وواد اسمراني
ويأتي أطفال الحارة، فتفتح بابتسامة،
وتتحرك كبطة عرجاء، وتكشف عن طبق
الـــ "كعكات"!.. يختار الأولاد الأولاد،
وتختار البنات العرائس.. يأكلون - أو قد لا
يأكلون ولكن فقط يأخذون- ثم يجرون إلى
حيث العيد.

في العام التالي، يتجمع أطفال الحارة.
تسمعهم بحماس يحكون.. عن أفضل كعك
عند الجدة كان بعامهم الماضي. يجرون إلى
الباب قد اشتاقوا للبسمة وكعك محروق.

***

فرط العنب

أسقطها أرضا، صفق الحضور. نزع ملابسها وهو يزأر، أطلقوا صفارات البهجة حتى سماء الليل. انتصب، وصرخ، واخترق، وهم يتابعون، ويشهقون، ويستمنون في سراويلهم، وبطلهم يؤدي دور أحلام يقظتهم في عنفوان.

~~

على الجانب الآخر، جواري تفرطن العنب من عناقيده وتطعمن الأمير في فمه، يحتفلن في هدوء راقٍ، بأعين تغفو في أحلام الرضا.

~~

قام يترنح منتشيا.. تفرق الجمع يترنحون

منتشين.. قامت، تحمل حيواناته الصغيرة، قذاراته وعرقه.. لم تأخذ ملابسها الممزعة، ولم تستر نفسها. كلما تساقط منها أثره لملمته، أخذته مختلطا بتراب الشارع المهبب بعادم السيارات، وروث آدمي لا يستحي البشر من إسقاطه من مخارجهم هنا وهناك.

تعرف طريقها بلا لبس.. إلى خيمته اتجهت. شهق الحراس سحرًا، عارية تمشي في كبرياء الجمال، أم ملل الحراسة يغتاله الخيال؟

وقفت تلتقط أنفاسها.. تساءلوا: ماذا تفعل تلك الماجنة؟ إنها تدلك سوءتها بالتراب ثم تكوره.. تتشممه، تبصق فيه.. تقرأ عليه ما لا يفهمون. وتكمل إلى مدخل الخيمة.

رآها.. أزاح الجواري والعنب المفروط.. قام

إليها.. ألقت ما بيديها تحت قدميه، ساخنة لم تزل من أثر ما فيها، فانفجر البركان تحته، وبقدمها – الجزء الوحيد منها الذي لم يزل يلبس شيئا، دكته إلى جهنم.

***

يحكى أن..

(١)

يحكى أن رجلا مر في سفره بأرض العدل. صادف وجوده أن مات الحاكم، فأراد أن يتولى أمرهم متحججا أنه لن يكون ناصرًا لقبيلة على أخرى، لأنه غريب عن جميعهم. تعجب الناس ولكن لم يجدوا عليه ما يشين، فقبلوا ولايته.

جاء يوم توليه الملك، فأعد نفسه للبس التاج فرحًا، ففاجأه أن ما ينتظره جلسة اللسع بالنار، التي هي بروتوكول شهري للملك المتوج، كي يتذكر جهنم إن حاد

عن العدل في أرض العدل

....

(٢)

يحكى أن رجلا مر في سفره بشعب عليه ملك ضعيف. تكلم الغريب مع الناس، فحكوا، فسمع منهم، فوثقوا به.

بعد فترة أرسى فيها قواعده، ضرب الرجل فيهم بسوطه، فثاروا، رأى ثورتهم فضرب أكثر، فثرثروا، فعزل حاكمهم وجلس مكانه.

وفي يوم إعدام الحاكم القديم، سألوه عن رغبته الأخيرة، فقال أريد أن أفهم. ضحك

الغريب وقال له: لو أن شعبك غير مؤهل، فمن غبائك أن تتحمل تبعة تأهله وحدك؛ إما المشاركة مع زعماء الطوائف، أو الأكسب على الإطلاق ألا تدع غير المؤهل يتأهل.

....

(٣)

يحكى أن رجلا أتى لكل زوجة من زوجاته بقفص من الطماطم وقفص من المشمش.

زوجته الأولى اخترعت الصلصة لتخزن الطماطم، واخترعت المربى لتخزن المشمش.

زوجته الثانية اخترعت محشي الطماطم، وفشلت في صنع مربى المشمش، فحولتها

لاختراع قمرالدين.

زوجته الثالثة طبخت بالطماطم، وأعدت السلاطة، وغسلت المشمش، وجهزت وليمة للزوجات كلهن، كي تستغل أكبر كمية ممكنة، وتقلل ما سيفسد، كي لا تحزنه.

أما زوجته الرابعة، فاكتفت بذكاء الثلاث الأخريات، وباعت القفصين خاصتها، واشترت ثوبا تغري به زوجها وتدخر الباقي لنفسها.

....

(٤)

يحكى أن امرأة لم تر في نفسها إلا أنها امرأة، فضاق عليها زوجها بما رحب.

رسمت ورسمت ورسمت.. كلهن نساء، وكلهن عاريات بدرجات مختلفة، ولكن فيهن نفس النداء. سمعت ما تمنت، شبعت أذنها، وشبع جسدها نظرات وأشياء أخر، وكُتبت في تاريخ الفن رائعة.

سأل ابنها جدته يوما عن أين "ماما"، فقال له: يا ولدي، لم تلدك أم، بل ولدتك امرأة رحلت

....

(٥)

يحكى أن رجلًا احترف الشكوى من زوجته، منذ تزوجا. في بداية الأمر كانت تبكي وتحاول إرضاءه. ثم باتت تبكي وحدها يائسة من إرضائه. تمر الأيام، وما

عادت تبكي، وإنما تغضب.. ثم لا تغضب، وإنما فقط تحنق. ثم لا تحنق، وإنما تندهش من قدرته على استخلاص ما يشكو منه..

ثم إنه يومًا فوجئ أنها ما عادت تندهش، فكف عن الشكوى ومات

....

(٦)

يحكى أن الزوج قال لها يشجعها، وهي آنذاك تجمع أوراق مشروعها، ذاهبة لمؤتمر هام: "خشِّي بصدرك". أصابتها الرهبة لحظة الدخول إلى قاعة فواحة بالثراء، لكنها كررت كلمته في نفسها، وقررت، وخشَّت بصدرها في ذنود الرجال، فلمعت شمسها

في جيوب الزوج.

....

(٧)

يحكى أن ملكا قال له أجداده إن العرش يبنى على الرجال، فصار كلما تلخلخ عرشه، أمر صُنَّاعه، فأتوا برجل جديد، فجعلوه وتدا، أو زاوية محنية، فثبتوا العرش به.

مع الوقت، لم يعد من الرجال الأشداء أحد، والعرش يتلخلخ، والملك غاضب..

يحكى.. أن الصنَّاع اجتهدوا في اختيار الرجال، ثم حاروا، ثم استمروا يأتون بالصنف المتاح. ومرة وراء مرة أصبح العرش كله من سوس.. وسقط الملك

رقصة

أدور وأدور وأدور.. أشعر بخدر وغياب عن كل الضجيج، حتى صوت الموسيقى.

أروع ما في الرقص هذا الوصول؛ أنتشي به أكثر من نشوتي في ذروة الجنس. عيناي المغمضتان وقوة الطرد المركزي مع سرعة دوراني يعطياني الإحساس بأنني بدأت أرتفع، وتفقد أطراف أصابعي الإحساس بالصلب الذي تدور فوقه. في هذه الحالة، يجب ألا يتغير الإيقاع والنغم، بل يظل يتكرر ويتكرر، كي لا يجذب التغيير الانتباه، فيسرق الراقص المجذوب من نشوته، ويزول مغناطيس سحره لجمهور فوَّضه لتغييبه معه.. وويل له إن أفسد الليلة على من أتوها بشوق المستفيق لجرعة الخدر.

ينتهي الوقت، وما أسرعه، ويتغير الإيقاع نحو الهدوء، فأنتبه وأفتح عيني متجولا في لهاث المتفرجين متصوفي الجسد، وتصفيقهم وتهليلهم. نخرج من على المسرح إلى الكواليس، فنقابل في خروجنا الفرقة التالية تدخل إليه. أحدهم يحمل علم بلادهم، التي كانت يومًا بلدي، قبل هروبي من التهديد، عندما أسررت لرفيقي أني لا أحترم السيف المشهر على العلم بلا كرامة. أخرجني لقاؤهم من سكرة النجاح، وحملني إلى عمر بئيس أحاول تعويضه في مهجري.

الفقر حليفي، والفن جنوني، والتنورة ودوارها مفتاح بقائي، بلا شوق إلى ديوانية ورفقاء وعيش رغد. خانني الرفقاء ووشوا بي إلى أولئك المعاتيه الظانين أنهم حراس الدين. أُرسلت إلى خارجها بلا سند، والأهل يعاقبونني كي لا يُعاقَبوا بي. ألا بئس الحياة المشدودة بين مسماري الثواب والعقاب. فلتكن الحياة تحت التنورة في حارات الفقر تحديًا لدعوة الحرية، ولأكن بقدر التحدي.

أعود للحظتي مع النداء للتحية الجماعية لكل الفرق المشاركة. إفريقيات وهنديات تتعرين وتتلوى أجسادهن، ومصريات بدينات يجتهدن في الهز ولفت النظر ببريق الـــ (ترتر). كل الأعلام تتجاور فوق هذا الهلس، ولا حرج. ألمح العلم يحمل الشعار المقدس يرتفع في المشهد حاضرا كل ذلك التهتك، فأضحك.. أضحك.. أضحك.. يلكزني المجاورون لأسكت، فأبدأ في الدوران، فيوسِّعوا لي ويوسِّعوا.. أقترب من العلم الأخضر أكثر وأكثر.. أدور وأدور أسرع.. وأفتح عيني أكاد أطلقهما سيفين كلما واجهت سيفه.. وأشد يديّ عن آخرهما أمامي.

تقف الموسيقى فجأة.. تسقط عني نشوتي ودَفعتي.. الجمهور والفرق كلهم يصفقون، بينما أنظر إلى غريمي في انهزام!

***

معضلة

قال الجد:

- وماذا تفعل مع ملولة، خلق لها ربها

حيضا لتشتاق إليك؟!

أُخِذت لوهلة، ثم عدت لما يهمني..

- ولكني أنا لا أمل المتعة، بل أحتاجها!

- تزوج!

صدمني.. لم أفكر في ذلك أبدا..

- أحب زوجتي بالتأكيد يا جد!

ضحك..

- أعرف

تفكرت قليلا..

- وهل ترضى هي؟

ضحك ملء شدقيه..

- وهل ترضى عن ربها، لترضى عنك؟

احمر وجهي.. هذا العجوز يعبث، حتى وإن كان حكيما.

أشار لي أن أقترب، أمسك أذني مترفقا، وكأنني طفل أذنب..

- يا ولد.. هي من ضلع أعوج.. ضلعك الأعوج.

ثرت..

- وما ذنبي في اعوجاجها؟!

مال برأسه ناظر لي في خبث..

- وما ذنبها في اعوجاج ضلعك؟!

كتمني. لحظات ثم تنهدت..

- لم تحل شيئا يا جد!

- ولِمَ أحل ما لم أعقِّد؟

- ألا أهمك؟

- ولهذا لا أهتم!

- أتعبتني!

- لم تقبل الحل، و لم ترض بالحال، فلن يرضيك رأي.

قمت.. ضجرت بفلسفاته، وضجرت بهدوئه، وضجرت بالمكان كله، حتى أردت أن أهدمه علينا معا.

طرق الباب، ودخلت.. حدقتنا بنظرة مرتابة، وهي ترى وجهي الغاضب، اقتربت وهمست تسألني:

- أمن أجل تقسمة الميراث تغاضبتما؟

ضحكت.. وددت لو تتحول قهقهتي
نشيجًا.. خبطت صدري أصيح:
"يـــــــــــــــــــــــا لهوي!"،
فصفعني كون ضلعي تحت يدي معوجًا!

***

قصاص

أسوأ ما أتذكره لها، إصرارها على رفض نمو قدميّ الطبيعي، فكأنما تأخذني لمحل الأحذية وتجعلني أقيس قبل الشراء، كمجرد إجراء روتيني لابد منه.

الموديل محدد قبل أن تسألني اختياري. لكن هذا لا يهم كثيرا، ففي أحلامي اخترت ما شئت من أذواق. لكن مقاس الحذاء ليس كشكله، فالحذاء لا يتسع بالأحلام، والألم والفقاعات يجعلان صمتي يصرخ في جبن عن التصريح. والأسوأ جدا، أن تلومني دوما على انفجار الحذاء من جوانبه، غضبا من التمدد بأكثر مما يحتمل!

أعود من شرودي، أقلب الحذاء – هديتي لها في

عيد الأم– أنظر للبائع وأقول متخذة قراري بالتراجع:

– هات نمرة أكبر

***

غريب

(١)

قال شيخي: خلقت من طين الأرض، فكنت غريبا في الجنة.. وخلقت في الجنة وكانت أول وعيك، فصرت غريبا في الأرض.. العجب إذًا ممن يظن السفر على نفس الأرض غربة!

حرت مع كلماته.. سألته:

- أتقصد سيدي أن الإنسان غريب أيًا ذهب؟

نظر، ثم عبس وبسر.. ثم أخيرًا ابتسم. سألني:

- أي السنين أكثر، حياتك أم موتك؟

رددت متسرعا في تلقائية:

- موتي بالطبع

ضحك حتى احمر وجهه، ثم نظر لي في قوة وسألني –دومًا يسألني، لا يجيب!– :

- فلأي عمر من السنين انتماؤك؛ الأقصر أم الأطول.. الأدوَم؟

تفكرت قليلا، أحاول ألا أقع في فخ لا أدركه من فلسفاته..

- كيف أنتمي للموت؟

قال:

- بل تنتمي للحقيقة.. تأمل هذا: من الأرض أنت، تخرج وتأكل وتنمو وتعود.. لها خلقت، وعليها تعيش، ثم تموت، ثم تحيا، ثم تحاسب –إن كنت ممن يؤمنون بالحساب–.. ثم بعد كل ذلك،

تدعها إلى جنةٍ مغايرة وأنت سعيد. كرر سؤالك لنفسك الآن عن الانتماء!

حرت.. قلت له في انكسار:

- يا شيخي، أحتاج الانتماء وإلا هت

رد في الحال:

- فتلك إذًا مسألة أخرى

……

(٢)

قلت:

- يا شيخي، لماذا قلت "إن كنت تؤمن بالحساب"؟ أليس....

ألجمني الحياء عن التكملة، فلم ينظر لي، وقال ناظرًا في الظلام الممتد أمامنا:

- الحساب حق، أليس كذلك؟

هززت رأسي موافقا و لم أتكلم.. سأل:

- هل كل حقٍ يجدُ العارفين به؟

قلت: بالتأكيد!

هم بقول، ثم تراجع، ثم قال:

- وهل كل العارفين بالحق مؤمنون به؟

لبسني صمت الفاشلين، فابتسم.. كعادته يبتسم حين أفشل، حتى أكاد أكرهه.. نازعت نفسي الهمة للمصارعة والمقارعة، فلم أجد حجة.. فهزمتني أنا!

....

(٣)

انتفضت على صوته، لا أدري أدخل عليَّ متسللا، أم أنا من لم أنتبه لخطوته واستئذانه.

قال لي وهو يدق عصاه بالأرض:

- هناك دخان لا ندري من صاحبه.

قلت وأنا اعتدل جالسًا متأهبًا:

- أهو حريق نقوم فنطفئه؟

ضحك وقال:

- بل رجل كان يبحث عن الانتماء هو.

قلت لا أفهم، فاستباح طرف فراشي لجلوسه وقال:

- رجل يقدس حريته، فلما رضت امرأته بحريته غضِب، فذاك دخان غضبه.

قلت لا أفهم، فاستباح كتفي لطرف عصاه ناغزًا..

- رجل يقدس حريته، التي يغتصبها من امرأته، فإن أتت برضاها غضِب.

قلت لا أفهم علاقة ذلك بالانتماء، فقال وقد استباح عينيِّ لنفوذ عينيه تقتلان عزيمتي على نقاشه:

- قال لها إنه يشك فيها.. أنها ربما كانت خائنة، أو على أقل تقدير لا تحبه. زهد الرجل امرأة وافقت كرامته في الحرية!

هز رأسه، ورفع عصاه من على كتفي، الذي احمر مكانها وآلمني. أكمل:

- أرض تعطيك حريتك راضية، لماذا لا ترضيك يا رجل؟ تبحث عن انتماء

مغصوب من أرض تؤذيك بأشد من
قتلك، ثم تطلق على عقدك ما شئت من
مسميات الجمال.

لم أسكت.. وكيف أسكت وهو ينهاني عن
وطن؟ ينهاني عن أمان ياء النَسَب؟.. لم
أسكت، ولم أتكلم..

بكيت!

***

صورة ابيض واسـود

من وهي بالضفاير طايرة من خلف الحقيبة
المدرسية
هي هي
كل يوم المحها من شيشي الموارب
كل يوم
لما مروا ييجي عشرين ألف يوم
غيَّرت لون الشفايف
كحلت حوالين عيونها الناعسانين
ضيقت فستانها أكتر
أصلها ماعادتش تجري زي أيام المدارس
والحقيبة..
والضفيرة
والمراهقة اللي تعاكس نسمة العصر الحنونة

والجنون

ليا كام يوم مش باوارب شيشي أو أستنى تاني

لما ايدها المستكينة ف ايده عدت تحت عيني

اتفاجئت ببرد روحي

قلت أسحب من رصيد الذكريات

فابتسمت

لما جات لي الصورة من أيام جميلة

بالضفيرة

والحقيبة

روحي طارت خلف شنطة مدرسية

ودمعتي نامت معايا

***

ليلة

في نفس هذا المكان، كنت أجلس بالأمس فقط؛ بالتحديد بليل الأمس. قابلته هنا بلا موعد ولا معرفة؛ ولكن جمعنا اشتياق واحتياج. كنا واجمين، في عيني دمعة ظاهرة، وفي قلبه دمعة مختبئة تلتمع في شُبَّاكي روحه، عينيه.

كان قبلي على طرف المقعد الطويل، فلم أجد مانعًا من جلوسي على الطرف الآخر. المقعد بارد جدا، حتى كدت أتركه. التفت إليّ، فالتفت إليه.. فلم أدر بنفسي، إلا وقد نسيت البرودة الملامسة تحتي، وشعرت بِهَبْوٍ يلفح قلبي، ويعلمه الشوق. مجنونة كنت، وكان مثلي.

تركت دموعي تلتاع على خدي، فتشجعت دمعته للقائها، وانجذبنا في حضن طويل، انتهى بعد كثير جدا جدا، فلم يكن حولنا من السخفاء من يقاطعنا ويتبرع بالنصيحة وإرشادنا إلى صحٍ وخطأ وحلال وحرام.

الليل بارد، والحضن دافئ جدا، فمن ذا يختار البرد؟! أخيرا تكلمنا.. قلنا كل كلام الحب الذي نبع صافيا صادقًا جدا. طويلا كان الكلام، كما كان الحضن. والعجيب، أن شكوى واحدة لم نقلها، ولم نضيِّع جمال الحالة معها. وجاءت الضحكة لتزين الكلمات بعد سويعات.. وزاد المرح، فجرى ورائي، وسبقني، وجريت وراءه، ثم عدنا نلهث إلى نفس المقعد الطويل، ولكن معا في طرف

واحد، تاركين الطرف الآخر، عسى متعبٌ يجده فيرتاح عليه.

مر طفل مرتعش يبيع الكولا التي أعشقها، فناديته. كان بائسًا جدا. مال على أذن رفيقي، وهمس فيها، فقهقه هذا عاليا، حتى ظننت القابعين في العربات المصفحة أمام مبنى التليفزيون على مرمى البصر سيصطفون في استنفار ضد ضحكته في التو. أخذنا من الولد (كانز) البيبسي وانصرف مبتسما، وقد أعطاه زبون الليل ورقة من فئة العشرين، ودفعه في كتفه لينصرف بها كاملة. سألته عما أسر إليه الغلام، فقال إنه كان يخبره أن لديه (بيرة). راقب دهشتي برهة، ثم انفجر في الضحك ثانية، وهذه المرة كنت معه بأعلى صوتي، لاعنة العربات المصفحة ومن فيها.

في نهاية الليل، قام.. وقمت.. وابتسمنا في رضا. وانصرفنا في رضا. الليلة انتهت جميلة، ليس كما بدأت.

الآن، أنظر إلى جرح إصبعي من إثر فتحي البيبسي.. أتذكر كيف أخذ يدي بتلقائية، فمص إصبعي حتى توقف الدم. تتجدد ابتسامي، وأتذكر أننا نسينا أن نسأل عن أسمائنا.

- الحلو قاعد لوحده ليه؟

حسنا، لقد أطل زبون لرزق ليلتي الجديدة. أرسم نظرة محترفة تماما، وأخبئ ذكرى ليلة راضية، وأبدأ السعي.

***

توتة.. توتة

حكيت لابنتي أن اللؤلؤ ليس دموع الجنيات.

قلت لها إن الذهب ليس شعر رابونزل

المقصوص. وأكدت.. أن الياقوت والمرجان

ليسا من شفاه الأميرات.

قالت: تحكي الجدة عن دموع كاللؤلؤ

قلت: تقول هذا كي لا تحزني أن لا لؤلؤ لدينا

قالت: حزنت على شعر رابونزل حين رأيتك

ترتدين الخاتم

قلت: لقد كسبت رابونزل حرية أفضل من

شعر تتسلقه الساحرة

قالت: شفتي ليست بلون الياقوت أو المرجان..

شفتاي نفس لون كل الأطفال

قلت: والأطفال كلهم بلون الأطفال، لأنهم
أجمل من الياقوت والمرجان
شردت قليلا، ثم سألتني بجدية.. هل أكف عن
سماع الجدة؟
ملكني الصمت.. ترى كيف لي أن أشرح
الأمر للجدة؟!

وتوتة.. توتة

....

لم أحك لابنتي، عن قط مدلل، أتوا به من بلاد
أخرى، يأكل طعاما صناعيا متلونا ومنكّها،
ويفرغ بطنه فوق بللورات خاصة كي لا

يشمئز من الرائحة، ويشبع البيت إزعاجا إن أراد الزواج.

القط يأكل، ويشرب، ويجد من يلاعبه ويربت عليه ويُقبَل منه نبش الأكسية بأظافره. القط يتململ إن رأى صرصورا، ويبتعد عنه. القط يخاف على نفسه من انتقال عدوى من فأر قذر مر بجوار الشباك. القط جميل وطيب وينشر الحب.

في أسفل البناية، كانت حجرة الحارس. وفي حجرة الحارس، كانت أسرة من أب وأم وطفلين ووليد ضئيل، أتوا من بلدة أخرى بعيدة. الحجرة بجوار منور العمارة، والحشرات لا تكف عن جعله مرتعا، والوليد تخشى أمه أن تقرض الفئران أصابعه.

وكان الابن الأكبر الطفل يسمع نداء السكان

على أبيه، فيرد عليهم ليعينه، ويذهب بدلا منه لشراء كيس حلوى أو علبة عصير لطفل بالأعلى اشتهاها ويتكاسل عن النزول في الحر.

وفي أحد الأيام، سمع الولد النداء، إذ فرغ كيس البللورات لزوم فضلات القط. أخذ الصغير الكيس القديم، ليريه للبائع، لأنه لم يستطع فهم المطلوب. واشترى الولد الكيس الجديد، وصعد به، وأعطاه للطفل الساكن بالأعلى، ومعه كيس الشيبسي الذي طلبه.

في نزوله، يتسكع على درجات السلم، ويستكشف هذا الكيس الفارغ، فيجد به بقايا من بضع بللورات، ويمد إصبعه ليلعقها.

ويبصق!

في الليل، تمغص الولد، فأعطته أمه مغلي الكراوية. بكى من الألم، فأخذته إلى الصيدلية

وأخذ حقنة مسكنة. الطفل مات، فرحل الحارس وأسرته من العمارة إلى بلدهم الصغيرة في حزن. وأتى للحراسة شاب جديد.

بعد سنة، القط أيضا مات، فاشترى الطفل الساكن بالأعلى قطا جديدا

وتوتة.. توتة.. لا تنتهي الحدوتة

....

حكيت لابني، أنه كان في أحد البلاد فتى وفتاة تحابا، ورفض أهلهما زواجهما. ذهبا إلى الحكيم، وطلبا منه إقناع أهلهما بالرفق بقلبيهما. نظر الحكيم إلى حماسهما، وتفكر

قليلا. ثم انفرد بالفتاة، وأعطاها ثلاث صور لشعر امرأة: منسدل حريري، وغجري، ومقصوص قصير. وقال لها: اعرضيها على صاحبك، واسأليه أي الشعر يحب، وعودي بالإجابة.

وانفرد بالحبيب وأعطاه ثلاث صور: عربة وحصان وحمار. وقال له: اعرضها على محبوبتك واسألها أيها تفضل، وعُد بالإجابة.

ذهب الحبيبان، وعادا بعد يوم واحد سعيدان.

قالت البنت: لقد اختار الشعر الغجري وأنا للمصادفة الجميلة شعري كذلك. وقال الفتى: لقد اختارت العربة وهذا طبيعي، وإلا لشككت في عقلها وما ائتمنتها على مسئولية بيت.

ضحك الحكيم، وقال لهما، وهو يهز رأسه:

للأسف لن أستطيع أن أقنع أهلكما. لو أنه يحبك يا ابنتي، لقال أحب شعرك ولو كان أكرت. ولو كانت تحبك يا رجل، لقالت أحب أن أسير معك أيا كانت الدابة. اذهبا، فإن عرفتما المنح لا الرغبة، فتعاليا فاقنعاني، وأعدكما حينئذ بالمؤازرة.

وتوتة.. توتة

....

حكيت لابنتي، أنه في ركن الزهور في الحديقة، دائرة من زهور صفراء، وسياج من زهور بنفسجية. في المنتصف، مثلث من زهور وردية فوّاحة، وحولها زهور بيضاء منمنمة. وبين تلك الألوان الرائقة، شذّت زهرة وحيدة، فنبتت حمراء قانية. عجيب لونها، ومتفردة في شكلها. نظرت حولها، وبحثت عن شبه يؤنسها، فلم تجد، وحزنت لوحدتها.

واستها الزهور البيضاء بأنها أزهى الزهرات،

فكيف تحزن

وواستها الزهرات الصفراء بأنها جديدة لافتة،

فكيف تحزن

اهتز سياج البنفسج، وغنى لها أنا الزهر الحزين

وأنت صاحبة لون البهجة

وهمست الزهور الوردية اللون قائلة: ما أنا إلا

لونك باهتا، أما أنت فأخذت اللون ناضجا
فرحت الزهرة الحمراء، وائتنست بقلوبهم،
ونسيت وحدها. فرحت أكثر، وبدأت الفرحة
تختال اختيالا. وبعنفوان، امتصت من الأرض
ما شاءت، تريد النضارة والظهور أكثر.
والزهور حولها تبتسم لها، تجاملها، تشفق
وتتلمس الأعذار، وتزداد إلى جوارها ضآلة.
وحين قل غذاء الأرض، أفاقت الزهور على
حقيقة جديدة، لا تستطيع أمامها إلا التهامس
بالشكوى، والخوف من المصارحة بها. الزهرة
الحمراء تعرف، وتزداد احمرارا بلون الدم.
ولكنها تقنع نفسها أن سعيها لبهائها هو بذل
لجهدها من أجل ركن الزهور بكامله.
وذات يوم، أتت الطفلة الرقيقة فرحة بالزهور
التي تحبها. قالت لأمها: انظري يا أمي، هذه

الزهرات صغيرة جدا، لم لا تنمو ككل عام؟

يبدو أنها تحتاجني لأرعاها.

وفي كل يوم، انتظمت الصغيرة، تأتي لتروي الصغيرات، وتنثر حولهم الغذاء، فتمتص الزهرات منه ما تدركه قبل جذور الحمراء العفية. حتى أتى يوم، وجاءت البنت بأمها، التي صفقت بيديها مهللة، مادحة تفتح ونمو زهورها الملونة.

- تستحقين مكافأة كبيرة يا جميلة

مدت يدها، فقطفت أجمل وأكبر زهرة متفردة بجمالها، ووضعتها في شعر صغيرتها، وقبلتها أحن قبلة في جبينها.

وتوتة.. توتة

....

حكيت لابنتي، أن الفتاة الفقيرة، كانت تخاف أن تذهب وحيدة إلى البئر، فتنتظر أهل الحي لتذهب معهم.

كانت تجري، فلا تدرك من يجرون، لأن خطوتها صغيرة بقدر طولها الصغير، فكانت تتأخر، ويجعلها ذلك تجد البئر قد خلا من الزحام، فتملأ دلوها بسرعة.

لكن كانت المشكلة، أن الدلو الممتلئ ثقيل جدا عليها، فتظل بجانبه حائرة، ثم تفكر، وتسكب قليلا على نبتة تجاور البئر، ثم تمشي، حتى إذا تعبت سكبت بعض ماء الدلو على نبتة على الطريق وتمشي، ثم تتعب فتسكب قليلا، فقليلا، فقليلا..

وتصل الصغيرة إلى أمها المريضة، فيكون معها قليل ماء يروي عطشهما ويقضي حاجاتهما

بالكاد حتى اليوم التالي، فتعيد الكرة مرة ومرة.
فكرت البنت أخيرًا أن تذهب وحدها، فهي في واقع الأمر تعود وحدها، فلا معنى للخوف.
قامت في البكور، فلم تنتظر، وحملت دلوها، وانطلقت في طريقها إلى البئر. وحين انتهت من الأمر وملأت الدلو، كان الناس قد وصلوا، فساعدها رجل عفي، فحمل دلوها مع دلوه، ووصل بها إلى أمها، فشكرته جزيل الشكر، فشربا كيف شاءا، وزاد الماء عن حاجتهما، حتى سكبا بعضا على الرمال، لربما يلطف النسمات وقت الحر.
وفي الفجر، قامت الصغيرة، فأخذت دلوها في يدها، وانطلقت في طريقها، لا يؤنسها في الطريق إلا صرير يد الدلو وهو يهتز مع هرولتها. وفي الطريق، رأت نبتات عطشى،

أصابها الهزال، وهددها الذبول، على طول
الطريق. وقفت مذهولة تدمع عيناها، كيف
نسيت سقاية النبتات وفرحت بسكب الماء
على الرمال لتلطيف النسمات؟!
جرت وجرت، وملأت من البئر وعادت
وسقت، ورجعت للبيت، بدلو يحمل قليل ماء،
وكثير حبٍ ورضا.

وتوتة.. توتة

....

حكيت لابنتي، أن الجميلة كانت أميرة ثرية.
ولأنها تحب الناس، بنت قصرها في وسط قريتهم، وجعلته من البللور، كي تراهم دائما، بينما هو بللور سحري لا يرونها من خلاله.
كانت ترى الضعفاء، فتنزل لمساعدتهم. وتطّلع على مصائب المصابين، فتهونها عليهم. ووجوه المكروبين، فتفرج من كروبهم.
رغم ذلك، كان الولد المشاكس لا يحبها، ويتمنى أن يسكن هو في هذا القصر المبهر، الذي ليس له مثيل في الدنيا. لجأ الولد للساحرة الشريرة، فقالت إن عليه كي يسكن القصر، أن يخطف الأميرة ويأتيها بها، لترسلها إلى ملك الجان.
وخطف الولد الأميرة، وسلمها للساحرة. وحقق حلمه وسكن القصر البللوري. لكنه لم

يكن كالجميلة؛ بل كان يراقب المشاة حول القصر، ويلقيهم بالطوب والحجارة، وهو مطمئن لكونهم لا يرونه، وربما يظنون أنها الأميرة من تفعل ذلك، فيكفون عن حبها.

في هذه المسألة، كان تفكيره محقا، فالناس سئموا الصبر، وبدءوا يردون الطوب على البيت. وتكسر البيت!

ندم الولد وأحس بخطئه حين رأى القصر المنيف كومة من شظايا الزجاج. وذهب مسرعا إلى الساحرة الشريرة، فأنقذ الجميلة قبل أن ترسلها لملك الجان، واعتذر لها معترفا بذنبه، وقال لها إنه عرف أن (اللي بيته من إزاز ما يحدفش الناس بالطوب). واعترفت الأميرة أيضا بذنبها، فما كان يجب أن تشيد قصرا مبهرا مستفزا وسط المساكن المتواضعة،

ورفضت أن تبنيه ثانية، واكتفت ببيت جميل، لكنه متواضع قريب ممن اختارت أن تكون بينهم.

وتونة.. توتة

***

حماتي

أغلقت الباب وراء يسرية وابتسمت.. كانت تعطيني ظهرها، ولكني رأيت ابتسامتها تكاد تكتم تحوُّلها إلى ضحكة. جاءت إليّ تتأرجح كأوزة. اتكأت بيديها إلى المسندين وجلست على الكرسي أمامي، ومددت قدميها على مسند جلدي، غير عابئة بمشطي قدميها يواجهاني. قالت:

- عارف مين اللي ممكن يطبطب عليك بجد وكلمة "حاسس بيك" منه حقيقية مش فض مجالس؟ ايدك وقلبك .
أي حد تاني هيكون في عينك الملاك ده سنة وللا اتنين وللا تلاتة.. وترجع

تكتشف انه ماكانش.

ماكنتش عارف؟ اديك عرفت.. بس

برضه -للأسف- هتقعد تستنى حد

يطبطب عليك ويحس بيك.. عبيط

يعيدني كلامها المستبق لشرحي وحكايتي دائما إلى إحساس لطالما كرهته منذ خط شاربي. إحساس كان يجعلني أغلي حين تضحك أمي وتذكرني أنها كانت تحممني بيديها وتنظف.... احم.. لقد ظلت -بلا حياء- تسألني حتى دخلت الإعدادي: "غسلت بين وراكك؟" وهي تقطف أوراق الملوخية بين جاراتها، اللاتي لم تنقطع زياراتهن لي بعد موتها، بحجة أني ابن الغالية، بينما هن يردن العريس الذي بقيت له الشقة، وبنت كل منهن هي الأكثر مناسبة له في عين أمها.

مقززات هؤلاء النساء كبيرات السن.

عائلة أمي بالذات لها تراث مقزز جدا، لا تتخلى نساؤهم عنه. عائلة أمي نعم، فحماتي هي ابنة خالة أمي، وكنت حتى أظنها في صغري خالتي. لهذا تزوجت ابنتها، وربما لهذا السبب وحده لم تطلِّق ابنتها مني حتى الآن، بل وتتفنن في معذرتي وتبرير سفاهاتي لابنتها، رافعة عني عبء التفكير وذنب كذبة.

انتظرت طويلا جدا.. نمت في مكاني، وصحوت.. ولم ينفتح باب الحجرة، ولم تعد يسرية بنظرة العتاب ككل مرة. لم أكن – ككل مرة أيضا– أستطيع أن أطرق بابها بنفسي، فلن أجد بعد ذلك ما أقوله وقد حازت أدلتها مادية، وصادرت هذه المرة هاتفي بكل ما عليه من أسراري معها وراء

هذا الباب، ولولا كلمة سره، لربما فتحته وفضحتني على كل موقع.

التفت مستنجدا بحماتي، فصفعني برد المكان، والكرسي، والمسند الجلدي الذي لم يهبط تحت ثقل وزن قدميها..

سكنت لدقائق أستجمع رجولتي، ثم تقدمت.. وطرقت الباب..

- يسرية، مش لاقي حماتي تدافع عني، أعمل ايه؟

كأن صوتي جرس صلاة الحقيقة، قام له وعيي، ليفاجئني بحقيقة أنكرها. بكيت، لم تمنعني رجولتي أن أفعل.. ففتحت الباب، وضمتني بقوة.. ضمتني وقد انحبست أنفاسها

في جزع أعرفه.. ضمتني كصغيرها لا رجلها..

منذ ذلك اليوم، لم تعاتبني أبدًا على بحثي عن حنان امرأة.. واعتادت الجلوس على ذلك الكرسي.. وتمديد قدميها على المسند الجلدي، ومشطي قدميها يواجهاني. لكنها لم تكن كعائلة أمي، فلم تثرثر بالنصائح في وجهي أبدًا!

***

الستار

إياك أن تكف عن الثرثرة يا جيوفاني.. قل أكثر، واعترف بأنك لم تكن أهلا لمكانك. قل، فبينك وبين من يستمع ستار لا يكشفك ولا يكشفه، فلن تفتضح هويتك حتى لمن تحكي له.

هل اكتفيت؟ أراك سكت، فلمَ؟ بالطبع أسأل؛ لأنني أعرف أن لديك أكثر. مالك ترتعش هكذا.. أرى بعينيك رعبا لم يكن للعيون أن تحتويه في حضرة مخلوقات، حتى وإن كانت أشباحًا.. الخوف معلق بطرف الحروف التي نطق لسانك، وعيناك معلقة هنا، خلف الستار.. أتظن الرب يختبئ ليفاجئك أنه

عرف وسمع كل ما قلت؟ ليتني أستطيع أن أُسمِعك ضحكتي منك، فلو سمعتها لربما مت اكتئابا وأرحت واسترحت.

أتذكُر ذاك الصراف منذ عقود، الذي كان يأخذ من الرواتب كل كسر للجنيه متعللا بـــعدم وجود فكة؟ كان أول من اعترف بخطيئته على مسمعك، وهو لا يرى ابتسامتك المتسعة استصغارًا لذلك الشأن الذي يزعجه، وأنت -مختفيا وراء الستار- تعبث بأظافرك، وتشد خيوط ملابسك مللا. أحسست وقتها أنك عظيم الصدر، قادر على بعث المغفرة من رقادها، لتثب غاسلةً قلوب المعترفين لك بآثامهم. ربما أحسست أنك جزء من الرب.

مع الوقت، تأرجحت صعودا وهبوطا على الإثارة، ثم على التعجب.. ثم سمعت بعدها ما

صدمك مرة واثنتين.. وثلاثة، وأكثر. ثم
تعودت الصدمات، حتى لم تعد صدمات..
رأيتك في كل أحدٍ تنظر لوجوه الجميع
كأهم غثاء الرذيلة المغطى كذبًا بطهر الصلاة،
في أكبر مظاهرة أسبوعية للخداع. شككت
برهبان الدير، وأنت تقسم ألف مرة ثم تتراجع
ألف مرة أن الصوت وراء الستار لأحدهم،
حتى كدت تفتقه لتتلصص على صاحب
الجريرة، وتشفي فضولك.. ثم إنك تراجعت
خوفا، لا إيمانا بدورك، الذي أثقلك حتى
اشتهيت خمرًا يوقف وعيك عن إدراك كل
تلك الحمول من أفعال البشر.

أتنكر أنك صاحب فكرة أنه مجرم تاريخي من
ابتكر هذه الوظيفة، ومجرم من يدفع بشرًا
ليتخذ القرار بنفسه، ويتخلص هو من ذنب

أن يكون آمره أن يعيش في حَرم الأسود، والأسود فقط من حياة العائشين؟ أتنكر أنك من تساءلت عما يفعله إبليس، ولماذا صار ابن جهنم، بينما البشر لهم في الجنة أمل، بكل ما يفعلون، وسمعته؟ أتنكر أنك صرخت ليلا في المسيح تسأله كيف يسمح له ضميره أن يمحو كل تلك الخطايا؟

الآن، اعترف.. قل كل ما سَبَبْت به أسلافك، وقل باكيًا أنك كفرت بالقديسين، وأيقنت في اعتقادك أنهم لم يكونوا يستحقون التقديس، وأنك صحت يومًا حين اختليت بالصحراء أن التحمل ليس ضربًا ولا نارًا، وأن التاريخ خلّد الآلام الهينة، وترك عظماء الألم مخفيين وراء ستائر الاعتراف. حتى

يسوع ظننته ما تعذب بشيء قدر ما تعذب السامعون بخطايا أبنائه.

مالك؟ هل ستسقط الآن.. ألن تصبر حتى تفشي ما لديك وتعلن مذهبك؟.. قم.. ليس بعد كل ما خطوت وقررت وبدأت التنفيذ.. لا ترتعش هكذا، لن أموت بك، قم.. إنني أتألم.. لا.. أعلن وجعك.. ليس البرزخ الآن، دعني أقول، عساهم يتعلمون ويفهمون، ربما.. لــــ... ليس.. الظـــ.. لا..م!

***